وإذا كان أبو نواس شُغل فى زهدياته بمصير الإنسان فإن ابن حازم ، وغيره كثيرون ، شغلوا بالدعوة إلى القناعة بالكفاف والرضا بالحظ المقسوم والغنى عما فى أيدى الناس والحكام من مثل قوله (١) :

اضْرَعْ إلى الله لاتَضْرع إلى الناسِ ... واقنَعْ بيأْسٍ فإن العزَّ فى الياسِ
واسْتَغْنِ عن كل ذى قُرْبى وذى رَحِمٍ ... إن الغنىَّ من استغنى عن الناسِ

وأخذت تظهر حينئذ تباشير التصوف ، غير أنه لا يزدهر فى هذا العصر ، إنما يزدهر فى تاليه ، وسنعرض لتلك التباشير فى الفصل السادس ، وأيضًا سنعود إلى الحديث عن الزهد حديثًا أكثر تفصيلا .

٤

موضوعات جديدة

رأينا موضوعات الشعر القديمة تتجدد تجدداً واسعًا فى معانيها ، فقد أخذت تُعْرَضُ بصورة أدق وأعمق ، وأخذت تدخل عليها إضافات كثيرة . ولم يقف الشاعر العباسى عند ذلك فقد أخذ ينمِّى بعض جوانب هذا الشعر حتى لتخرج منه فروع جديدة كثيرة . ونحن نعرضها بترتيب الموضوعات التى تحدثنا عنها ، وأولها مثالية الشيم العربية الرفيعة التى كان يصف بها الشعراء ممدوحيهم ، فقد تناولوا هذه الشيم شيمة شيمة ، وأخذوا يفردونها بمقطوعات أو قصائد ، يجردونها لها محللين ، ومفكرين ملاحظين ، فقطعة فى تصوير الكرم ، وقطعة فى تصوير الحلم ، وقطعة فى تصوير الحياء ، وقطعة فى تصوير العفة ، وقطعة فى تصوير الصبر والتنفير من اليأس من مثل قول محمد بن يسير : (٢)

لا تيأَسنَّ وإن طالتْ مطالبةٌ ... إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجَا
إن الأُمور إذا انسدَّتْ مسالكها ... فالصبر يَفْتَحُ منها كلَّ ما ارتتَجا (٣)

---

(١) العقد الفريد ٣/٢٠٧ .
(٢) أغانى ١٤/٤٢ وقد نسبها ابن المعتزلابن حازم . انظرص ٣٠٩ .
(٣) ارتتج : أغلق .

أخلقْ بذى الصبر أن يَحْظَى بحاجتِه ومدمن القَرْع للأبواب أن يَلِجَا(١)
فاطلبْ لرجلك قبل الخَطْوِ موضعَها فمن علا زَلَقاً عن غِرَّة زلَجا(٢)

وهيأ ذلك لفتح باب واسع من تحليل الأخلاق المحمودة . وأيضًا فإنهم وسعوا معانى الهجاء وما فيه من أخلاق مذمومة ، فتناولوها هى الأخرى بالبسط والتفصيل منفصلة عن أشعار الهجاء . وبذلك أتاحوا للمربين والمعلمين مادة طريفة لتأديب الناشئة وحثهم على الأخلاق الفاضلة وصدهم عن الأخلاق المذمومة . وقد وقفوا طويلا عند واجبات الأخوة والصداقة واختيار الإخوان والأصدقاء وسَبْر أخلاقهم قبل اصطفائهم فهم على طبقات منهم من يشبه الدواء ومنهم من يشبه الداء ، ومنهم المتصنع الملق الذى يشبه الثمرة المرّة حسنة المنظر ، فإن نزل بك سوء فر منك وازورّ عنك ، وفى ذلك يقول حماد عجرد(٣) :

كم من أَخٍ لك لستَ تنْكرهُ ما دمتَ من دنياك فى يُسْر
متصنِّع لك فى مــودَّتهِ يلقاك بالترحيب والبِشْرِ
يُطْرِى الوفاء وذا الوفاء ويَلْ حَى الغَدْر مجتهداً وذا الغَدْرِ(٤)
فإذا عدا ـ والدَّهر ذو غِيَرٍ ـ دَهْرٌ عليك عَدَا مع الدَّهْر(٥)
فارفُضْ بإجمالٍ مودَّةَ منْ يَقْلِى المُقِلَّ ويَعْشَقُ المُثْرِى(٦)
وعليك مَنْ حالاه واحدةٌ فى العُسْرِ إما كنتَ واليُسْر
لا تخلطنَّهمُ بغيرهمُ من يَخْلِطُ العِقْيان بالصُّفْر(٧)

وحماد يجعل مقياس الأخوة الصادقة المواصلة فى العسر ، ويعرض علينا صورة الإخاء الكاذب الذى لا يعرف الأخ فيه أخاه إلا فى السراء، أما فى الضراء فيزورُّ عنه ازوراراً. وجعلهم تفكيرهم فى الأخوة ينهون عن صحْبة الحمقى لما تجرُّ من بلاء كثير ،

---

(١) يلج : يدخل .
(٢) زلقا : مكانا زلقاً . غرة غفلة زاج : زلق وزل .
(٣) ابن المعتز ص ٦٨ وأغانى ١٤/٣٥٩ .
(٤) يطرى : يمدح . يلحى : يذم .
(٥) عدا الأولى من العداء والثانية من العدو أى الجرى .
(٦) بإجمال : بأدب . يقلى : يكره .
(٧) العقيان: الذهب . الصفر : النحاس .

وفى ذلك يقول أبو العتاهية: (١)

احْذرِ الأَحمقَ أَن تصحبه ... إنما الأَحمقُ كالثوب الخَلَق (٢)
كلما رقَّعته من جانبٍ ... زعزعته الريح يوماً فانْخَرَقْ
أو كصدعٍ - فى زجاجٍ - فاحش ... هَل ترى صَدْع زجاجٍ يلتصق
فإذا عاتبتَه كى يرعوى ... زاد شرًّا وتمادى فى الحُمُقْ

وكان الشاعر القديم كما أسلفنا يقدم لمدحته بوصف الأطلال معبراً عن حنين قوى لملاعب حبه فى صباه وشبابه ، مستطرداً من ذلك إلى وصف الصحراء ، وقد صورنا ما حدث من إضافات فى هذه المقدمات ، والمسألة تتسع ، فإذا هى توحى للشاعر العباسى بمقطوعات أو قصائد مستقلة وكأنه اتخذ منها نوافذ لموضوعات جديدة ، وهى موضوعات نجد بذورها فى مدائحه، فقد ذكرنا أنه عدل أحياناً عن وصف الأطلال إلى وصف القصور ، ولكن الذى نسجله هنا أنه ترك أطلال نجد إلى أطلال بعض القصور فى الحاضرة وخصها بمقطوعات مفردة من مثل قول محمد ابن يسير فى قصر خرب (٣) :

ألا يا قصرُ قصرَ الدُّوشَجانى ... أَرى بك بعد أَهلك ما شجانى (٤)
فلو أَعفى البلاءُ ديارَ قومٍ ... لفضلٍ منهمُ ولعُظْم شانى
لما كانتْ تُرى بك بَيِّناتٍ ... تلوح عليك آثارُ الزمان

وهذا الموضوع الجديد هو الذى ألهم البحترى فيما بعد سينيته المشهورة فى إيوان كسرى . وقد دفع الحنين الذى صحب وصف الأطلال الشاعر العباسى فى بعض مدائحه إلى بَثّ حنين مقابل لوطنه وبلده حين ينأى عنه وتظل روحه ملتصقة به ، ولكن الجديد أنه أفرد لهذا الحنين قطعاً بديعة من مثل قول دعبل (٥) :

أَلمْ يأْنِ للسَّفْر الذين تحمَّلوا ... إلى وطنٍ قبل الممات رجوعُ (٦)

---

(١) العقد الفريد ٦/٣٥٧ .
(٢) الخلق : البالى .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٣٩ .
(٤) شجانى : أحزننى .
(٥) أغانى (ساسى) ١٨/٤٤ .
(٦) يأن : يحن . تحملوا : ارتحلوا .

فقلتُ ولم أملك سوابقَ عَبْرَةٍ نَطقْنَ بما ضُمَّتْ عليه ضُلوعُ
تَبَيَّنْ ، فكم دارٍ تفرَّق شَمْلُها وشَمْلٍ شتيتٍ عاد وهْو جَميعُ
كذاك الليالى صَرْفُهنَّ كما ترى لكل أُناسٍ جَدْبَةٌ ورَبيع (١)

ومرَّ بنا أن الشاعر العباسى كان يحتفظ أحيانًا فى مقدمات مدائحه بوصف الصحراء وأحيانًا يتركها إلى وصف الطبيعة فى الحاضرة ببساتينها ورياحينها ، وقد أخذ يخص هذه الطبيعة بمقطوعات وقصائد كثيرة ، بحيث أصبحت موضوعًا جديداً واسعًا ، وكان يمزج نشوته بها فى بعض الأحيان بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع القيان ، وفى كثير من الأحيان كان يقف عند تصوير فتنته بها وبورودها ورياحينها من مثل قول إبراهيم بن المهدى فى النرجس (٢) :

ثلاثُ عيونٍ من النَّرْجسِ على قائمٍ أَخْضَرٍ أَمْلَسِ
يذكِّرْننى طِيب رَيَّا الحبيبِ فَيَمْنَعْنَنِى لذَّة المجلسِ (٣)

وقد أكثروا من وصف الأمطار والسحب ، كما أكثروا من وصف الرياض وخاصة فى الربيع حين تتبرج الطبيعة بمناظرها الفاتنة . وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم أحيانا خلال هذا الوصف ، مما جعلهم يخاطبون بعض عناصرها ، وكأنها أناسىّ تحمل عواطف الإنسان ويصيبها ما يصيبه من ريب الزمان ، ومن خير ما يصور ذلك مخاطبة مطيع بن إياس لنخلتى حلوان على هذه الشاكلة (٤) :

أَسْعِدانِى يا نَخلَتَىْ حُلْوانِ وابْكيالى من ريْب هذا الزمان (٥)
واعلما أن رَيْبه لم يزل يَفْ رُق بين الأُلاَّف والجيرانِ
ولعمرى لو ذقتما أَلم الفُرْ قة أبْكا كما الذى أَبْكانى
أَسعدانى وأَيْقِنا أَنَّ نَحْساً سوفَ يلقاكما فتَفْتَرِقانِ
كم رمتْنى صروفُ هذى الليالى بفراق الأَحباب والخُلاَّنِ

---

(١) جدبة : المرة من الجدب وهو القحط .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب)١٠ / ١١٥
(٣) الريا : الرائحة الجميلة .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب)١٣ / ٣٣١.
(٥) حلوان : من بلاد العراق فى طرفه الشمالى مما يلى إيران . أسعدانى أعينانى بالدموع .

ونرى شعراء كثيرين يعنون بوصفِ مظاهر الحضارة العباسية المادية وما يتصل بها من الترف فى الطعام والتأنق فى الملابس والثياب ، ووصف القصور وما حولها من البساتين وما يجرى فيها من الظباء والغزلان من مثل قول أبى عيينة المهلبى فى وصف قصر ابن عمه عمر بن حفص المهلبى (١) :

فيا طيبَ ذاك القَصْرِ قصراً ومنزلا ... بأَفْيَحِ سَهْلٍ غيرِ وَعْرٍ ولا ضنْكِ
بِغَرْسٍ كأَبْكار الجوارى وتُرْبةٍ ... كأَن ثَراها ماءُ وَرْدٍ على مِسْكِ
وسِرْبٍ من الغِزْلانِ يَرْتَعْنَ حوله ... كمااستُلَّ منظومٌ من الدُّرِّ من سِلْكِ

وأكثروا من وصف الحيوان والطير والحشرات ، واشتهر بذلك خلف (٣) الأحمر وجهم (٤) بن خلف ، وفى كتاب الحيوان للجاحظ من ذلك مادة وافرة .

وعلى هذا النحو نفذ الشاعر العباسى من وصف الشاعر القديم للصحراء وحيوانها الأليف والوحشى إلى وصف بيئته بجميع مظاهرها وعناصرها الصامتة والمتحركة ، وقد وصف وصفاً دقيقاً الأمراض والآفات التى انتابته ، ويصور ذلك من بعض الوجوه قصيدة لعبد الصمد بن المعذَّل يصف فيها حمى اعترته ، وفيها يقول (٥) :

وبنتُ المنية تنتابنى ... هُدُوًّا (٦) وتطرقنى سُحْرَهْ
كأَن لها ضَرَماً فى الحشَا ... وفى كل عضوٍ لها جَمْرَهْ
لها قُدْرةٌ فى جسوم الأَنامِ ... حباها بها الله ذو القُدْرَهْ
وطوراً ألقِّبها سُخْنةً ... وطوراً ألقِّبها فَتْرَه
وصِرْتُ إذا جُعْتُ يوماً ظَلِلْتُ ... كأَنَّ على كبدى شَفْرَه (٧)
ويربو الطحالُ إذا ما شَبِعْتُ ... فتعلو التَّرائِبُ والصُّدْرَه (٨)

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨٥٣ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٤ .
(٢) أفيح : أوسع ، أولعله من فائحة الرائحة .
(٣) الحيوان ٤/٢٧٩ .
(٤) الحيوان ٣/٢٤٢ وانظر الهامش .
(٥) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ١٢١ .
(٦) الهدو : أوائل الليل . سحرة : وقت السحر .
(٧) الشفرة : حد السيف وجانب النصل .
(٨) الصدرة : الصدر .